للعصفور بيت
والسمك بيت

قصة بقلم
رسمي ابو علي

عندما التقيت بها في بداية ذلك الصيف كانت قد تلقت لتوها ضربة من ذلك النوع من الضربات القاصمة الذي يستحق بجدارة لقب « ضربة العمر » . اذ نبذها الرجل الذي أحبته ورعته و ... صرفت عليه والتحق بامرأة أخرى . وكذلك كان حالي : اذ تخلت عني المرأة التي أحببتها سنوات طويلة من عمري وعشقت رجلا آخر .

رأيتها ذات صباح في أحد المكاتب وكانت تحاول جاهدة أن تتصل بأحدهم تليفونيا . كانت تعابير وجهها فظة قاسية ، وكذلك كانت حركاتها ـ وكان اصرارها على الاتصال المرة تلو الاخرى يضاعف من مجال النفور الذي تنشره حولها ـ لقد كرهتها مافي ذلك شك ، وتمنيت صفعها لانني أعتقد انه ما من شيء في العالم ، سواء أكان مصيبة أم كارثة ، جدير بأن يضعنا في دائرة الفظاظة : لقد لاحت لي الفظاظة ومشتقاتها على الدوام صرخة حقيرة في وجه هذا التماسك الحزين النبيل .

كان عليّ أن أتلفن لشخص ما ، فاضطررت الى الاقتراب منها وأنا أطلب منها بأدب مقهور اذا كانت تسمح لي باستعمال التلفون . وعندما فتحت فمها لتجيب غمرتني رائحة الخمر الكريهة ، فأسرعت باغلاق التلفون بحركة غير متوقعة وأنا أسرع بالخروج فيما كانت تنظر اليّ بدهشة وفضول ..

* * *

أخذت تحوم حولي ، ولا يعرف الا الشيطان كيف عرفت من انا وأين مكتبي ـ كانت تهبّ فجأة كريح شريرة وتقتحم غرفتي دون أن تقرع جرسا أو بابا ، وما اكاد أرفع رأسي حتى اراها بكامل قامتها الطويلة المتينة : امرأة فظة نخيلتها قادمة من تاريخ قام على الاجتياح وسفك الدماء .

كانت تأخذ طريقها دون كلام الى أقرب كرسي وتضع ساقا على ساق وابتسامتها المستفزة تتراقص على شفتيها الدسمتين ، ثم تمد يدها الى حقيبتها الجلدية القديمة وتتناول علبة سجايرها وتشعل واحدة دون أن تفارق وجهها تلك الابتسامة التي كانت تشعل كل شياطين الشر في رأسي .

ماذا كانت تريد ؟

وعندما تنتهي من تدخين بضعة سجاير مع فنجان القهوة كانت تتجه مباشرة الى طاولتي وتضع يديها الاثنتين على الطاولة وتنحني عليّ كاشفة عن ثديين لا شك في صلابتهما وجمالهما . وبعد أن تتأكد انني نظرت جيدا اليهما تستقيم ثانية ثم تعود الى كرسيها وابتسامتها الهازئة تتسع وتتسع ..

ثم .. وكأنها كانت تقوم بطقس لا محيد عنه ، كانت تفتعل اي شيء لتنحني باتجاه أرض الغرفة انحناءة كاملة ، كاشفة عن مؤخرة أخاذة باستدارتها وصلابتها ،

وعندما تتيقن انها قامت بطقسها المجنون كاملا كانت تفزّ فجأة وتتجه الى الباب دونما كلمة ، تاركة اياي مرفوع اليدين بحركة ارادية ، كأنما اريد ان أسألها عن شيء لن تجيب عليه ابدا .

ماذا تريد ؟ ماذا تريد ؟

ماذا تريدين ؟ سألتها ونحن نأكل في ذلك المطعم القبيح بكراسيه البنية الفامقة التي تبعث الكآبة والوحشة ..

ماذا تريدين ؟ لم تجب وانما كرعت كأس العرق الصافي دفعة واحدة وطلبت المزيد . قلت لها بأنها شربت ليترا كاملا حتى الآن ، وانه يحسن ان تتوقف . كنّست اعتراضي بحركة من يدها ثم دقت يديها وطلبت من النادل ليترا آخر وهي تقول لي :

ـ سنشربه معا هذه المرة . يجب أن تتعلم كيف تشرب العرق دون ماء .

قلت لها بأنني غير متعود على هذا وانني أصلا لا احب العرق لا صافيا ولا مكسورا .

فقالت هذا غير مهم ، ستشرب والا عملت فضيحة حقيقية .

قلت : ساشرب . نعم ساشرب ولكن بشيء من الماء .

فوافقت بحركة ملوكية ولكنها قالت :

ـ هذه المرة فقط وفي المرة القادمة سنشرب دون ماء ، والا كيف تقول لي ان امراتك قد هجرتك ؟

وختمت كلامها بحكمة بليغة خلاصتها ان الذي لا يشرب العرق دون كسر هو رجل لم تهجره امراة قط .

شربنا وشربنا وتحدثنا وشربنا . وتهاوت بعض الجدران ، واخذ قلبي يرق وانفجرت في صدري الاغنيات ، فقلت لها : احبك ! وصفقت فحضر النادل وطلبت منه كأسين جديدتين وشددت عليه أن تكونا كاملتي النظافة واللمعان ، وهي تنظر اليّ راضية حزينة. وصببت العرق حتى الحافة ، وقلت : سنشرب منذ الآن عرقا صافيا نخب عذابك وعذابي ! وشربنا بنهم ثم شربنا وقلت لها : احبك واشتهيك واريدك أن تقيمي في جرحي ولا تبرحيه ! فابتسمت بحزن وسالت دموعها . آه لو لم نكن في محل عام لتذوقت دموعك يا حبي قطرة فقطرة.. قطرة فقطرة .. قطرة فقطرة ...

* * *

آه ماذا قلت حتى غضبت ؟ اية حماقة ارتكبت لتدلق ابريق الماء الفخاري على رأسي وتصفق الباب بعنف وتفرقع خطواتها نازلة على الدرج ؟

* * *

فلتذهب الى الجحيم .. هل تحاربني بجنونها ؟ اذا كان الامر كذلك فلنر . وامرت جنوني أن ينطلق واخذت بخيالي أسدد لها طعنات قاتلة وكنت واثقا انها ستصيبها .

وصرت أبرد من الصقيع واشد لؤما من اللؤم نفسه. أيتها العاهرة تلعبين لعبة القسوة والشفقة . سنرى اذا كنت تجيدينها حتى النهاية .

عادت وقالت : اريد ان اعيش معك . سألتها : لماذا ؟ قالت : لانني لا اجد مكانا انام فيه . هل اصدقها ؟ لم اصدقها ، ولكن لي قلبا ارقّ من قلب عاهرة حقيقية عندما التقي انسانا لا بيت له . فليكن . قلت لها : ولكنني لا اريد اية متاعب . هل تفهمين هذا ؟ لا اريد اية مشاكل لان لديّ من المشاكل ما يكفيني . قالت : لا افهم . قلت لها : بل تفهمين . تستطيعين الاقامة فترة قصيرة حتى تدبري أمورك .. وخلال هذه الفترة لا أريد اية مشاكل. (ثم ، فان اقامتك لا ترتب عليك اية حقوق أدبية نحوي) !

لا تريد اية مشاكل ؟! يا للغرور . كيف ؟ وانت نفسك قد استضفت مشكلة ، وها هي المشاكل تبدأ من الليلة الاولى : شربنا وشربنا وتحدثنا . كلا . لم نتحدث. كان كل منا يحدث نفسه ـ يفرغ مونولوجه الطويل . وعندما تعبت من كل شيء نهضت لانام . قالت : لست تعبة . نم اذا شئت . واما أنا فسأكمل سهرتي عند صاحبك . صاحبي من ؟ سألتها . صاحبك الذي في الدور الثالث . غريب ! ومن اين عرفته ؟ سألتها . قابلته على الدرج ظهر اليوم وكان لطيفا . عن اذنك ... وخرجت وصفقت الباب بصوت مدو ايقظ حتما كل من في البناية .

* * *

وضعت راسي على الوسادة وأنا أستمتع بذلك الشعور القديم الذي كدت أنساه : شعور من يعرف ان امراة ما تنام مع رجل آخر لتجرحه الجرح الحقيقي الذي لا تقدر عليه الا امراة حقيقية .

كنت ارتجف وانا اضع راسي كطفل على وسادتي منتظرا عودتها . غفوت وحلمت ، ومرّ وقت طويل ، ثم سمعت صوت المفتاح يصر في سكرّة الباب .. ما أعذب هذا الصوت .. ما أعذب تلك اللحظة التي تدس فيها امراة المفتاح في باب غرفتك .. خطر ببالي ان اتظاهر بالنوم ، ولكنني كنت قد تجاوزت زمن التظاهر بأي شيء . دخلت مترددة ثم خلعت ملابسها واندست في فراشها ، وعندما نظرت اليّ كنت مفتوح العينين أنظر اليها بلطف ومحبة كأنني اباركها ثم غفوت .